المتخيل السردي ودوره في الكشف عن جماليات الصحراء المرجعي

The narrative imaginary and its role in revealing the aesthetics of the reference desert

صماري بوعلام[1،*]، عليوات سامية[2]

[1] جامعة الجزائر 2، (الجزائر)، b.semmari@univ-boumerdes.dz

مخبر أطلس الثقافة الشعبية الجزائرية

2جامعة بومرداس، (الجزائر)، samiaaliouet2@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2023/04/01 **تاريخ المراجعة**: 2024/02/21 **تاريخ النشر**: 2024/03/30

ملخص:

إن للكتابة السّردية دور في جذب السيّاح والتّعريف بالصّحراء؛ من عادات وتقاليد وفضاءات مكانية، وثقافة وعمران وأغاني شعبية وتفكير جمعي ... لاستقطاب القارئ وجذبه قصد اكتشاف ما تموج به الصحراء من عوالم حضارية، ومعرفية وسياحية .

حيث أسهمت روايات الصديق حاج أحمد الزيواني -مملكة الزّيوان- في التّعريف بعادات وتقاليد الصّحراء، وما يميز البيئة الصحراوية؛ كالقصور بهندستها المتفرّدة ومواد البناء القديمة بما يضفي على المكان عراقة وأصالة تغوي القارئ بزيارتها لاستكشاف عبق التاريخ والفن .

الكلمات المفتاحية: المتخيل السردي، البيئة الصحراوية، مملكة الزيوان، مصاحبات الخطاب.

Abstract:

Narrative writing has a role in attracting tourists and introducing the desert. From customs, traditions, spatial spaces, culture, urbanism, folk songs and collective thinking... to attract the reader and attract him in order to discover the civilizational, knowledge and tourism worlds that ripple through the desert.

Where the novels of Al-Siddiq Haj Ahmed Al-Zaywani - the Kingdom of Al-Zaywani - contributed to defining the customs and traditions of the desert, and what distinguishes the desert environment. Such as palaces with their unique architecture and ancient building materials, which give the place nobility and originality, seducing the reader to visit it to explore the fragrant history and art.

***Key words**: The narrative imaginary, the desert environment, the kingdom of the Ziwan, the accompaniments of the discourse.*

* المؤلف المراسل.

تقديم:

إن الأدب السياحي يشمل كل ما يحيط بالإنسان ويمر بحواسه أي ما يراه ويسمعه ويتذوقه، يعتمد فيه الأديب منهج الوصف المباشر على نمط السرد، تأتي الموصوفات فيه منمقة متأنقة في عباراته، والغاية منه سكب جمالية ومحاسن لمن يرغب في السفر والسياحة قصد البحث أو الاستمتاع والتمتع في صحراء الجزائر، يعتمد فيه الروائي خاصة على فضاء المكان كبؤرة للنص من خلاله تتحرك الشخوص وتجري داخله الأحداث والغاية قصدا أو بغير قصد هي التأثير وجذب القارئ، وكأن القارئ يشاهد فلما يعتمد كرونولوجيا المشاهد والصور ومرئيات متنوعة من جبال وواحات وغابات ومياه متدفقة (الفقارات) وقصور عتيقة لا تزال شاهدة على قوة البناء وبراعة مهندسيه وتفاني مشيديه، وكذا فنون شعبية وفلكلورية، مما يغري القارئ ليحمل حقائبه ويحج إليها كي يشبع حاجته السياحية ويحقق المتعة والراحة هناك، وهذا ما عمل من أجله كتاب حديثو العهد في كتابة الرواية الصحراوية ونقصد الروائي الجزائري الصديق حاج أحمد الزيواني، دون أن ننسى الإشارة للروائي الليبي إبراهيم الكوني؛ وكلاهما يكتب ليعرف بالصحراء؛ تاريخها، أمجادها، وبطولاتها ويحرك كوامنها فيخرج ما بداخلها من قيم معنوية ومبادئ راسخة منذ القدم، كما يبرزان الأمكنة في الصحراء بوصف أخاذ صادق يدل على عظمة المكان وعبقرية ساكنيه، وهذا لا يتأتى إلا بصناعة سردية تعتمد المعرفة والتجربة وتجعل من الذات الصحراوية تلتفت إلى إبراز نفسها وثقافتها ووطنيتها، وتعبر عن مدى انسجامها وتعايشها مع الآخر المختلف وتفتح ذراعيها للجميع انفتاح وانبساط الصحراء.

ونسعى من خلال هذه المداخلة إلى إيضاح دور الكتابة السردية في جذب السياح والتعريف بالصحراء؛ من عادات وتقاليد وفضاءات مكانية، وثقافة، وأغاني شعبية، وتفكير جمعي ... لاستقطاب القارئ وجذبه قصد استكشاف ما تموج به الصحراء من عوالم حضارية ومعرفية وسياحية.

كيف أسهم الصديق حاج أحمد في الكشف عن جماليات الصحراء؟ وكيف أبرزت رواياته وعرفت بهذا الفضاء الهامش والذي صار مركزا؟

ماهي الآليات والسبل والأدوات التي استخدمها الروائي في روايته مملكة الزيوان ليروج للسياحة الجزائرية؟ وكيف تعاملت كتاباته مع القارئ من خلال حثه على أن يسبح في مضمونها على أرض الواقع؟

رواية مملكة الزيوان في ضوء الأدب السّياحي:

الخطاب السياحي في حقيقة الأمر يعتمد خطابا متميزا حيث أن الطريقة التعبيرية التي يسلكها مرنة تجمع بين الممارسة اللغوية والثقافية قصد الإقناع والتأثير، حيث تعد فيه الرواية وسيلة من وسائل التواصل تعتمد لغة سياحية واضحة المعالم تجذب المتلقي، إذ يعمل الروائي على ترغيب وإثارة اهتمام القارئ. وتدخل روايات الصديق حاج أحمد الزيواني (مملكة الزيوان) ضمن هذا الأدب باعتبارها أسهمت في التعريف بعادات وتقاليد الصحراء، وما يميز البيئة الصحراوية؛ كالقصور بهندستها المتفردة ومواد البناء القديمة بما يضفي على المكان عراقة وأصالة تغوي القارئ بزيارتها لاستكشاف عبق التاريخ والفن ... هذا الصرح الذي يراعي الطقس الصحراوي، وكذا قرب واحات النخيل الباسقات منها؛ والتي تعكس الكثير من الجمال والسر الغرائبي اللذان يبعثان على الدهشة والعجب عند المتلقي فيتملكه فضول زيارة الصحراء واكتشاف جيوبها ومناظرها الخلابة.

ولقد عمل الروائي الصديق حاج أحمد الزيواني من خلال رواياته وبالأخص" **مملكة الزيوان**"؛ والتي تحمل أبعادا تاريخية، ومعالم أثرية وكذا سياحية، كما أن سرده للأحداث وارتباطها بالفضاءات المكانية جعلت من روايته تتمسك بحبال الأنثروبولوجيا بإقليم توات بأدرار الجزائرية وكذا بسوسيولوجيا وابستمولوجيا مجتمع القصور بجنوب الجزائر.

كما أبدع الروائي في إبراز عادات وتقاليد الإنسان الصحراوي وثقافته من خلال لباسه ونمط معيشته ومصدر رزقه، وقد استثمر الصديق حاج أحمد في روايته "مملكة الزيوان" تقنية مصاحبات الخطاب بكثرة، وهذا للكشف عن علاقة فضاء القصر الروائي المتخيل بالفضاء المرجعي، لنجد أن الرواية عرفت بهذا الإرث الحضاري للعمارة في الصحراء الجزائرية وبالضبط في إقليم توات، بعدما ألف القارئ أن يسمع ويقرأ عن الخيمة فقط.

كما تحدثت الرواية عن **النخلة** كمصدر رزق رئيس ذات أبعاد صوفية فهي في المتخيل الصوفي؛ تحمل دلالة الصبر والمجاهدة والعطاء الدائم، وهي صفات تنعكس على إنسان الصحراء عادة.

الروائي في روايته مملكة الزيوان كان واع حين استثمر كل ما هو إيجابي في فضاء الصحراء ليغير قناعة المتلقي وهو يزعزع ما ترسب في ذهنية الآخر المختلف على أن الصحراء مكان للقفر والجدب والموات، في حين تكشف الرواية عن كل ما هو جمالي ومثالي في الصحراء الجزائرية.

عنوان الرواية "مملكة الزيوان":

أما العنوان فيأتي تفصيله فيما يلي من خلاله نعرف بالرواية "**مملكة الزيوان**" لصاحبها **الصديق حاج أحمد الزيواني**؛ فهذه الرواية هي الرواية الباكورة لصاحبها، حيث يتكون هذا الإنجاز السردي من أربعة عشر فصلا يعرف من خلاله الروائي بمنطقة أدرار وبالضبط منطقة توات، نجده يؤرخ ويؤثث للمكان أكثر مما يكتب أحداثا، كما يمكن أن ندرج العديد من وقائعها في أدب السيرة؛ ونقصد سيرة المجتمع التواتي هناك.

أما مصطلح: " **الزيوان**" الذي سميت به هذه المملكة فيعني به الكاتب في اللهجة التواتية **عرجون التمر اليابس**، فالنخيل أشجار مثمرة تحيط وتتواجد بكثرة في قصور منطقة أدرار الشاسعة وتعد مصدر رزق للأهالي وجذب للتجار، نظرا لأهميتها في حياة سكان الصحراء (من **تبلكوزة** نواحي **قورارة** شمالا إلى **فقارة الزوى** ب**عين صالح** نواحي **تدلكيت** جنوبا مرورا لما بينهما لأهل **توات الوسطى**)2

كما نتكئ في تعريف هذه الرواية على ما أورده **السعيد بوطاجين** على أن مملكة الزيوان هي تجربة على مدينة أدرار، تنزع إلى الإهتمام الشديد بخصوصية المكان والمعجم والمعنى وبعض العادات، وبحكايات تحتية لا يمكن أن تزهر إلا هناك بعيدا عن صخب المدن التي فقدت ملامحها3

أما **حبيب مونسي** فيجد أن الروائي الصديق حاج أحمد الزيواني قد عنون روايته **بلفظتين اثنتين**؛ **مملكة والزيوان**. وأن اللفظة الأولى بعيدة الفهم عن أهل الصحراء عموما لأن نظامهم القبلي الصحراوي يرفض أن تكون فيه شيء على عرف الممالك المعروفة تاريخيا، فالصحراء تعد مجموعة من الواحات التي تحيط بها الرمل ويجتهد أهلها في إحاطتها وتسييجها بأسوار من طين وحجر باعتبارها قصورا تختلف في شكلها ولونها وهندستها عن القصور المعروفة.

لنجد أن لفظة مملكة في عنوان الرواية لا يخضع للمعاجم العربية وإنما يخضع لما يعرفه أهل الجنوب الجزائري وما يخضعون له من أعراف ونظم حياة بها، **والقصور** أيضا يعنى بها البيئة المعمارية التي تعيش بها مختلف الأجناس البشرية والتي تحكمهم من الأعراف والعادات والتقاليد. أما مصطلح **الزيوان**؛ والذي يجد فيه القارئ غرابة ويستعصي على الفهم فهو لفظة من لهجة توات؛ لفظة محلية أدرارية تعني **عرجون التمر حينما ييبس**، ويرمز به الروائي إلى إنسان الصحراء الأصيل.

دور الرّواية في جذب السّياح:

بداية نذكر أن التاريخ الثقافي والتجاذب الإجتماعي يرتبط بالمكان ربما أكثر من ارتباطه بالزمان، فعلاقة المجموعات البشرية بالمكان هي المحددة للزمن وإذا اتفقنا على أن مكان الرواية بشخوصها وأحداثها لا يتجاوز سقوف وجدران المدينة بما تحمله من تجاذبات تاريخية وإجتماعية وثقافية لم يستطع فيها الإنسان البوح بكل آماله وآلامه فتبقى عدة شفرات عالقة دون حل؛ ليلجأ الروائي الجزائري إلى فضاءات أخرى أكثر رحابة يدعى من خلالها الروائيون العرب عامة وأبناء الجنوب الجزائري خاصة للكتابة لأنهم الأقدر على التبحر في الصحراء كفضاء سردي جديد. فيفهم كل غريب عن هذه البيئة تضاريسها وطبيعتها وحضارتها وعمرانها ولغتها ودينها وأنثروبولجيتها إلى أن تطأ قدماه أرضها ويتحاور مع أناسها، وتحدثه طبيعتها ونخيلها وتربتها الذهبية الطاهرة ويجد ترحابا منقطع النظير، وأرواحا سامية لا تعرف إلا الصدق والصبر؛ وقد ذكر شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكرياء الصحراء في "**إلياذة الجزائر**" وأحسن نعتها وهو ابنها البار بها، وأثنى عليها وعلى ما في أرضها من بشر يتميزون بشمائل عظيمة وما تحمله في بطنها من خيرات زكية، وأنعامها من غزلان وجمال ونوق تعلم الإنسان هناك الصبر والتوثب نحو الأمل والحرية والعيش الكريم حيث قال:

ألا ما لهذا الحساب ومالي ... وصحراؤنا نبع هذا الجمال
هنا مهبط الوحي للكائنات ... حيال النخيل وبين الرمال
ومهد الرسالات للعالمين ... ونور الهدى ومصب الجمال
هنا العبقريات والمعجزات ... وصرح الشموخ وعرش الجلال
تبادلنا الشمس إشعاعها ... ويلهمنا الصفو نور الهلال
ونعدو فنسبق أحلامنا ... ونهزأ من وثبات الغزال
وجنبنا الغدر ماء الغدير... وحذرنا الظل نهج الضلال
وعودنا الصدق راعي المواشي ... وعلمنا الصبر صبر الجمال[1]

هذا دون أن ننسى أن الإنسان الأوربي قد كتب عن الصحراء ومن يسكنها، كما اهتم بها أيما اهتمام فهو يدرك أن هذا المكان الشاسع الفسيح يدر ذهبا وخيرات بقدر اتساعه وشساعته وانبساطه، ومن أبرزهم المستشرق الألماني كارل بروكلمان، خصوصا في كتابه: تاريخ الأدب العربي.

كما أن هناك محاولات من عدة كتاب جزائريين أمثال: مالك حداد في روايته "سأهبك غزاله"، ومولود معمري في نصه العبور، كما نجد الطاهر جاووت في "إختراع الصحراء"، ورشيد بوجدرة في روايته "تيميمون"، دون أن ننسى ثلاثية الروائي الحبيب السائح؛ "ذاك الحنين"، "تلك المحبة"، و"تماسخت دم النسيان" إذ كانت التفاتة عظيمة ورائعة منهم لأحد ربوع الجزائر القارة، عمل من خلالها هؤلاء الروائيون الجزائريون حديثا على بث

النور في إحدى جوانب العيش بالصحراء في زمن وظروف خاصة. وليس هناك من يستطيع إبراز الروح والوجه الحقيقي لتاريخ الصحراء الجزائرية وفضاءاتها وتراثها الجم وثقافتها الفريدة أفضل من ابن الصحراء عينه؛ حيث يجيد التجاوب مع ما سبق ويربطه شعور وأحاسيس خاصة بمن عايشهم من أجداد وأنداد فالإنسان ابن بيئته كما قيل، ومن ثمة يعمل الروائي على تأثيث حياة الإنسان الصحراوي وما يحيط به ليشكل لنا صورة تاريخية وجغرافية بكل العادات والتقاليد والأعراف ويعمل على التعريف بالهوية الثقافية الصحراوية، إضافة إلى ما ذكرنا من روائيين جزائريين تناولوا الصحراء في كتاباتهم ففضلهم ليس يخفى.

وقد أسهمت الرواية موضوع دراستنا في التعريف بعادات **وتقاليد الصحراء**، وما يميز البيئة الصحراوية هي فضاءاتها بهندستها المتميزة كالقصور، وشوارعها الضيقة ونوع البناء الذي يراعي الطقس الصحراوي، وكذا ساحاتها وتضاريسها وقرب واحات النخيل منها والتي تعكس جمالا أخاذا يبعث على الدهشة والعجب عند المتلقي فيتملكه فضول الحج إلى الصحراء واكتشاف جيوبها مناظرها الساحرة، كما أبدع **الصديق حاج أحمد الزيواني** في إبراز عادات الإنسان الصحراوي، وثقافته ونمط معيشته.

وقارئ روايته البكر مملكة الزيوان يستشعر تسليط الروائي الضوء على أهم ما يميز الصحراء أي العرجون (**الزيوان**) حيث يسم الروائي العرجون بسمات إيجابية تحمل دلالات عميقة، فالعرجون يحيل القارئ مباشرة إلى النخلة الأم، والنخلة رمز الصحراء وجوهرها وقد ذكره الزيواني في مقدمة روايته قائلا: " **كم لك في خضرتك وزيوانك نفع يا عرجون، معظم الأشياء لها في خضرتها حظوة وسلوان، ولها في يبسها نكر وهجران إلا أنت يا عرجون، وزيوانك، وأمكما النخلة ...** "[2]

وهذه افتتاحية لا تعرف فقط بالصحراء، وإنما تعينها كمكان مثالي، يفضله الروائي عن كل الأمثلة والمدن لأن كل ما في العرجون نافع وفي كل مراحل حياته وكينونته؛ ابتداء بمرحلة البزوغ والميلاد والتشكل إلى غاية الإنتفاع منه، واليباس في الأخير، وأن كل جزء منه ينتفع به الإنسان والحيوان والبيئة؛ فهو ثمار وموقد وأداة للنظافة والصناعة، وأن أعظم ما يحمله العرجون هو التمر الذي يقول فيه ﷺ: " **بيت لا تمر فيه جياع أهله**" في حين أن معظم الأشياء والمخلوقات تنفع ويرجى منها النفع فقط مرحلة النضج والقوة والينع، ثم تفسد وتبور وتموت لتنتهي، كما أن التمر بأنواعه كلها فاكهة متجددة كلما مر عليها الزمن ازدادت قوة وحلاوة وتماسكا ونفعا، وهي رمزية من الروائي يشير بها من خلال لفظة العرجون إلى قوة وجلد وجمال أمه.

و**للنخلة** أبعاد صوفية منها في المتخيل الصوفي؛ تحمل دلالة الصبر والمجاهدة، وهي شجرة مباركة حيث يقول تعالى: ((**وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلي واشربي وقري عينا**))[3] وقد أثبتت الدراسات العلمية عن تجارب أن لثمار النخيل بأنواعها ونقصد **الرطب** سحرا وتسهيلا وغذاء مفيدا للجنين والحامل ساعة ولادتها ويجعل جنينها قويا معافى.

ثم إن إنسان الصحراء الأول لم يندم حينما اختار النخلة رفيقا له، فالنخلة إلى جانب ما تمنحه بسخاء من ثمار شتى، هي مصارع شديد للقسوة، تتميز بالصبر والجلد، مثلها مثل الإبل، لا تستسلم بسهولة أمام مناخ الصحراء المتنوع على حد قول صاحب رواية مملكة الزيوان.

أما في الصفحة الثالثة من الرواية دون ترقيم فيتذكر الروائي أهل المملكة حيهم وميتهم فخصهم بالدعاء من **تبلكوزة** شمالا إلى نواحي **تدلكيت** جنوبا وما بينهما من أهل توات فيصفهم بالكرم والأصالة والورع.

التّمثيل الرّوائي لحضارة الزّيوان:

يسافر الروائي الصديق حاج أحمد في روايته **مملكة الزيوان** بشخوص تكاد تكون حقيقية في أمكنة صحراوية حقيقية، إذ يكتشف البيوت والرمال هناك في مرابع توات بأدرار؛ وهي عوالم غرائبية، والكاتب في روايته وهو يكشف ويكتشف فضاء الصحراء يشكل من خلال شخصيات روايته وأمكنتها؛ جغرافيا إقتصادية وسياسية وإجتماعية وتاريخية والتي كانت متأصلة منذ القدم في إقليم توات، وكيف أن قوافل المسافرين قد عهدت وعرفت طرقها منذ الأزل فيكسب إنسان الصحراء أرباحا طائلة بعد كده وجهده واجتهاده، هي حركية دائمة دأب عليها الناس في قصور وواحات توات لتشكل صورة رائعة لتركيبة بشرية متميزة، لها طقوسها الدينية وعادات وتقاليد تشد الروائي وتفتح أبواب حنينه لأيام البراءة وعبق الماضي والتاريخ، فيحاول حاج أحمد أن يكشف البنيات المشكلة لذهنية أبناء المناطق الصحراوية، فيبرز ما هو كامن وبخاصة الحياة الإجتماعية.

أما الكاتب عبد القادر ضيف الله فقد ذكر في مقال بعنوان" جمالية المتخيل الأنثروبولوجي في رواية مملكة الزيوان نشر في الحياة نت الجزائرية قائلا: **تعد مملكة الزيوان من الروايات الجزائرية الصادرة حديثا والتي اشتغلت على البعد الأنثروبولوجي الذي يعتبر حالة من الترحال في الجوانب الخفية الغامضة من الحياة الإنسانية، وهو نوع من الترحال الذي يأخذ القارئ إلى عوالم غريبة وبعيدة ليستكشف معانيها، ويفك رموزها، ويكتنه أسرارها وينهل من معينها ...**

هذا وقد جعل المكان في روايته **مملكة الزيوان** وكذا رواية **كاماراد و منا .. قيامة الشتات**؛ بطريقة بانورامية بما تحمله من جماليات تشد الأذهان وتحرضها على شد الرحال إليها، وقد كان الصديق حاج أحمد حريصا على أن يرسم الصورة الدقيقة؛ كحديثه عن مسقط رأسه ويوم ولادته وما صاحب الميلاد من طقوس ولباس وعادات وتقاليد مصاحبة له، فقد كان صاحب الرواية مؤرخا وجغرافيا وتراثيا باقتدار، حيث لم تبتعد ذاته الكاتبة عن محيطها بل استطاع أن يضع روايته في كبد الصحراء بعوالمها المفتوحة، كما استطاع تغيير النظرة إليها من الأسطورة والخرافة والجفاف والصمت إلى الحركية والازدهار؛ مكان تتمثل فيه الذات الصحراوية التي تعيش في الرخاء والخيرات والحرية، لنبتعد عن المركز(المدينة) ويتحول **الهامش** (الصحراء) إلى **مركز** يفتت البديهي السائد على أن الرواية لا تخرج شخوصها وأمكنتها ووقائعها عن أسوار المدينة.

وقد انتبه الروائي الصديق حاج أحمد الزيواني للكتابة عن مكان يعرفه أكثر من غيره ويتخيله بناء على ما عايشه وترعرع في ربوعه، ففصله في رواياته ووظف جمالياته في نصوصه بدءا بالشخصيات والأحداث وذاكرة الأمكنة بأزمنتها دون أن ننسى عنوان الرواية **كعتبة رمزية** لا يمكن إغفالها حيث عنون باكورة أعماله السردية بمملكة الزيوان؛ إذ يتكون العنوان من كلمتين اثنتين نتحدث عنهما ولو باقتضاب من شأنه أن يزيل الغموض خصوصا الكلمة الثانية: **الزيوان**؛ على أن كلمة **مملكة** يسير فهمها.

والعنوان هو العتبة الأولى والعتبة الأخيرة لأي نص من النصوص الأدبية؛ حيث يتوقف عنده القارئ ويتفحصه ليلحظ جمالياته ويحاول فهمه وقد قيل أن العنوان **(يمثل الحركة الدائرية للعمل الأدبي)**.[4]

وجدير بالذّكر أن الاهتمام بالعنوان ومدلولالته في أي عمل أدبي قديمة قدم النقد العربي؛ ويقصد بهذا الكلام أنه ينطلق من بنية تركيبية تفضي إلى فهم النص وضمان حياته واستمراريته، وهو المحور الأساسي للنص السردي حيث يكشف لبس وغموض النص، وأن العنوان لا يقتصر على غلاف ما كتب فقط، بل يتجاوز ذلك

فيكون مع النص كوجهان لعملة واحدة، إذ يمثل العنوان دليلا يفتح به الخطاب، كما أن العنوان يقترن باسم المؤلف شكلا ومضمونا، كما يربط بين الكاتب والكتابة.

اللغة المعتمدة في رواية مملكة الزيوان والتّعريف بثقافة أهل الصّحراء:

دون أن ننسى أن الروائي الصديق حاج أحمد الزيواني قد زاوج في لغة كتابته (الإزدواجية اللغوية)؛ وهو ما يعبر عنه بتعدد المستويات اللغوية؛ حيث ذكر **شارلز فرجيسون** في مقالته الشهيرة عام 1959 أن اللغة تعتمد مستوى أعلى (اللغة الفصحى) ومستوى أدنى؛ (اللغة الدارجة؛ اللهجة العامية) فلكل منهما مواقف ووظائف خاصة.

ولأن الرواية تعتمد شخوصا بسطاء من عامة أهل القصور نجد اللهجة العامية تطغى في حواراتها وخطاباتها لنجد أن الرواية أدق تعبيرا وأكثر واقعية خصوصا إذا ما اعتمد الروائي على ذكر أمثال شعبية وشعر غنائي شعبي تغنيه النسوة أو الرجال في المناسبات، أو لتنويم الأطفال الصغار، ومن أمثلة ذلك نجد قوله:

الله الله الله

ياسيدي بوتدارة

يا من جاهك عند الله

آرجال الصبارة

جيت مهودة لتوات

ألقيت الزعفة ما بقات أداها بوريشات

أولحت العار على مولانا "[5]

هذه المزاوجة اللغوية بين لغة العامة وفصيح القول أبرزت الرواية وأضفت عليها سحنة جمالية بارزة، كما عرفت بلهجة منطقة توات حيث اعتمد الروائي على شرح ما يستغلق على القارئ فهمه من لهجات توات فيشرحه معتمدا بكثرة على مصاحبات الخطاب وهي سمة بارزة في كتابات الصديق حاج أحمد الزيواني الذي يعتمد على اللغة الفصحى إذا ما روى التاريخ، ثم يتحدث بالعامية حينما يود إبراز ما علق بالحياة الإجتماعية لأهل الجنوب هذه الأخيرة التي تطرب لها الآذان وتستقر في أعماق النفوس.

لنجد أن الرواية هي سرد للأحداث والوقائع والقصص التي يتحكم فيها الروائي، حيث ترتكز على خلفية ثقافية، سياسية، اجتماعية كما تحمل في طياتها العديد من الشخوص، هذه الشخوص مختلفة الطبائع والصفات والإيديولوجيات، والتي تعبر عن القضايا الثقافية والسياسية والاجتماعية التي يواجهها الإنسان كل يوم.

الرواية حقيقة توجه عادة إلى جمهور يقرأ ويكتب من خلالها يتصور تجربة إنسانية معاشة، وإذا ما وسمنا الرواية نجد أنها ترصد الواقع المعاش بصورة فنية جمالية فريدة.

فضاء القصورب "توات من المرجعي إلى المتخيّل ":

أسهمت الرواية في إماطة اللثام على الجانب المعماري الذي يؤثث فضاء الصحراء، حيث تجاوزت تلك النظرة التي كرستها وسائل الإعلام المحلية خاصة، والتي روجت لندرة الناحية المعمارية في الصحراء، واقتصرت تلك النظرة على إبراز الخيمة؛ كبيت وحيد وأوحد ونمطي للإنسان الصحراوي يقيه الحر والقر صيفا وشتاء،

هذا المنزل المرتبط بنمط المعيشة وحياة الحل والترحال. في حين كشفت الرواية عن فضاء متميز، وهو فضاء القصر؛ الذي كان يتخذه القبائل الصحراوية كبيوت ذات هندسة فريدة يعيشون داخلها، لكن نجد أن قصورهم تختلف عن باقي القصور إذ ذكر في روايته واصفا القصر كمكان رائع عجائبي.

كما ذكر الفيلسوف الفرنسي (**غاستون باشلار**، 1962) في كتابه" جماليات المكان": (**إن المكان الذي ينجذب نحوه الخيال، لا يمكن أن يبقى مكانا لا مباليا، ذا أبعاد هندسية وحسب، فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط، بل بكل ما في الخيال من تحيز**)، فللمكان قيمته لدى الأدباء، وله مكانته عند النقاد والمؤلفين فليس المكان جزء من التضاريس، والأشكال فحسب، بل هو عواطف وأخيلة، وهذا ما سلكه الكاتب والروائي الصديق حاج أحمد الزيواني في رواياته؛ **مملكة الزيوان، كامارد، ومنا ... قيامة شتات الصحراء**؛ حيث تفطن كابن من أبناء الصحراء لوعي الكتابة عن مكان يعرفه أكثر من غيره، حيث وظف الروائيون الجزائريون على اختلاف توجهاتهم متخيل الصحراء؛ **" في أجساد نصوصهم وتمفصلات سرودهم، بدء بعتبة العنوان، ومرورا بالشخصيات والأحداث والتوظيف المشهدي، وصولا إلى لغة المكان بأقلام العارفين بالمكان"**، وقال صاحب مجموعة" **حائط رحمونة** " لضفة ثالثة: " **يتجلى حضور الصحراء في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية بالخصوص، حيث لم تغب جمالية الصحراء، التوظيف الفني في السرد الجزائري**".

وقد استثمر الروائي الصديق حاج أحمد تقنية **مصاحبات الخطاب** بكثرة، وهذا للكشف عن علاقة فضاء القصر الروائي المتخيل بالفضاء المرجعي، فيؤكد للقارئ أن هذه القصور ليست محض صدفة خيال، وإنما هي قصور واقعية مما يؤجج الرغبة لدى القارئ في اكتشافها وزيارتها، فقد جاء في هامش المتن على الصفحة السابعة قوله: " ... **ما شاء الله له أن يرى، من أوصاف الواصفين للجمال وفنون أذواقه، بمخطوطات خزائن مملكتهم الزيوانية بقصور تمنطيط وتليلان، وملوكة، وزاوية كنتة وزاوية الشيخ المغيلي، وأنزجمير وأقبلي، وأولاد سعيد، والمطارفة، بل قد ساربه الحال حتى بلاد السودان الغربي، فبلغ حواضرها العلمية ...** "[6]، كما عمل على تعريف مقتضب للقصور المذكورة في قوله آنفا؛ نحاول أن نعرف ببعض القصور؛ على أن معنى القصر بأدرار **يتمثل فيما يعرف ب" القصبة" قديما؛ وهي بيوت الأشراف ذات السور العالي، والبرج والمسجد ... تسكن هذه القصبة عائلات يتوزعون على بيوت طينية، بحيث ينتهون غالبا إلى جد واحد، ومن باب إطلاق الجزء على الكل صارت القرية كلها تعرف باسم القصر**. ومن قصور أدرار نذكر:

أ) تمنطيط: وتعود تسمية القصر بتمنطيط – حسبما ورد في مخطوط" البسيط في أخبار تمنطيط" لمؤلفه محمد بن بابا حيدة – إلى الأصل العجمي وهي مركبة من جزءين "أتما" وتعني النهاية "تط" وتعني العين كما أن هناك إشارة أخرى لمعنى تمنطيط فهي تركيب لكلمتي " أمان" و"تيط" وتعني العين ويعد قصر تمنطيط من أبرز الحواضر العتيقة والعريقة التي عرفتها منطقة صحراء وشمال افريقيا منذ القدم، حيث ظل شاهدا تراثيا حيث استمد قيمته التراثية من موقعه الجغرافي؛ الذي يقع في قلب إقليم توات بهندسة معمارية صحراوية متميزة، تستقطب عبور القوافل التي كانت تعبر الصحراء، فازدهرت الحركة التجارية بهذا القصر واستقر به السكان وتوفرت به المياه بكثرة فاستغلها الانسان عن طريق نظام الفقارة ومارس بها نشاطا فلاحيا رائدا، مما جعل قصر تمنطيط من أعظم الحواضر الإفريقية اقتصاديا وفكريا وعلميا، حيث استقطبت شخصيات عظيمة في مجال

القضاء والعلوم الشرعية، كما يعيش بها مزيج من القبائل شكلت نسيجا عمرانيا منسجما، متسقا يسكن عمرانا تقليديا مشتركا؛ في المواد الأولية، وهندسة البناء وتقنية الطرقات والممرات.

هذا البناء الذي يعتمد على " **القصبات**" ومنها: قصبة توفاغي، وقصبة تاهقة، وقصبة أولاد محمد، كما يتواجد بقصر تمنطيط عدة أضرحة منها ضريح سي بايوسف محمد ومخزن الشيخ المغيلي ... دون أن ننسى أن الجوانب الاجتماعية والثقافية والدينية وما لها من أثر بالغ في تشييد المساجد والمنازل، مما أعطى لقصر تمنطيط طابعا خاصا متميزا، كما عرف سكان هذه المنطقة حرفا تقليدية واشتهروا بحرف تقليدية تعتمد الصناعة اليدوية؛ حيث برعوا في صناعة الفضة، والطين والحدادة، والنسيج باختلاف أنواعه؛ خصوصا بأجزاء النخل كسعف الجريد.

ب) تيليلان أو تينيلان: هي إحدى قصور أدرار بالجنوب الغربي الجزائري الكبير، وأصل التسمية تعود إلى اللهجة الزناتية حيث تسمى" تينيلان" وتتركب الكلمة من جزءين؛ تين أي مكان وإلال أي الأحرار وتعني الكلمة ككل؛ **مكان الأحرار**، ويسكن تيليلان مرابطون عرب أصلهم من بودة، ويعود تأسيسها إلى الحاج أحمد بن يوسف من أولاد أنقال بعد انتقاله إليها عام1647 للميلاد ليؤسس بها زاوية.

ويعتمد أغلب سكانها على الفلاحة والزروع والتي يغلب عليها غرس النخيل واعتماد السقي بنظام الفقارة حيث يوجد بهذا القصر خمس فقارات مشهورة وهي: فقارة شعب وبغداد والزاوية، والسبخة وتاركمون.[7]

ج) ملوكة: وهو قصر من قصور أولاد احمد بأدرار بالجنوب الغربي الجزائري، وتعود التسمية إلى أن البلباليين اشتروها فصارت ملكا لهم فشيدوها وحرصوا على تحسين مظهرها المعماري، كما اعتمد سكان ملوكة في كسب الرزق على التجارة والفلاحة، كما يستعمل فلاحو ملوكة على غرار كل القصور على نظام سقي نخيلهم بالفقارة؛ حيث توجد فقارتين اثنتين بها وهما الجابية وسهيل.

ومن أشهر شخصيات ملوكة وأعلامها نذكر **سيدي الحاج بلقاسم البلبالي**؛ وهو ولي صالح وله ضريح بملوكة، يزار كل عام.[8] وتعد من أعظم القصور بتوات في أدرار باعتبارها حاضنة ثقافية واجتماعية ولما لها من شهرة كبيرة في الجنوب الغربي الجزائري.

زاوية كنتة: والتي سميت باسم مؤسسها وهو الشيخ سيد أحمد الرقاد الكنتي، حيث تعد زاوية كنتة من أقدم الأماكن بمنطقة توات؛ تتشارك الأرض شمالا مع قصر إغيل بتامست، أما جنوبا فتجد قصر بوانجي بتراب أنجزمير، أما غربا فتحاذيها تندوف، وعرفت ملوكة تطورا اجتماعيا وثقافيا؛ تشكل فيها القصور سلسلة خطية ممتدة من قصر أظوى جنوبا، حيث تضم زهاء عشرين قصرا منها: أولاد الحاج، تبركانت، مناصير، تاخفيفت، زاوية الشيخ، أظوى.

لنجد أن الرواية عرفت بهذا الإرث الحضاري للعمارة في الصحراء الجزائرية وبالضبط في جغرافيا إقليم توات، بعدما ألف قارئ الرواية أن يسمع وحسب عن الخيمة ليكتشف أن هذه المساحات الشاسعة قصور آسرة ليست في هندستها المتميزة فقط.

الرّواية ودورها في التّعريف بثقافة أهل الصّحراء:

يعد الأدب نمطا من أنماط التعبير إذ هو انعكاس لتجارب إنسانية صادقة، من خلاله يعبر الأديب عن مشاعره وعواطفه الجياشة فالأديب ابن بيئته وناطقها الرسمي ينقل من خلال إبداعه آمال وآلام المجتمع الذي

يحياه إجتماعيا وسياسيا وثقافيا، وبما أن الرواية في عصرنا هذا تعكس صورة المجتمع وسبل تفكيره وخلاصة تجاربه وثقافته حيث نجح الروائي الصديق حاج أحمد إلى حد ما في إماطة اللثام عن عدة أشكال تراثية خصوصا في رواية مملكة الزيوان كما أبرز جانبا كبيرا من أنثروبولوجيا إقليم توات وما تعلق بإنسان أدرار بالجنوب من تفكير وتاريخ وثقافة شعبية راسخة، كما جعل من هذه الرواية مسرحا ومعرضا سياحيا حيث استثمر الموروث الثقافي والاجتماعي وأحسن تشكيله وتوظيفه، كما أبرز معرفته وتعلقه بهذا الموروث المعنوي والمادي، فالروائي أصيل بامتياز لنسأل أنفسنا والقارئ:

كيف تجلى الموروث الشعبي الصحراوي في رواية مملكة الزيوان؟ وكيف قدم الروائي هذه المواد الاجتماعية والثقافية المرتبطة بالحياة في الصحراء؟ وما مدى إسهامها في الأدب السياحي بالمنطقة؟

سوسيولوجيا المجتمع الصحراوي بتوات" أدرار":

المتطلع إلى رواية (مملكة الزيوان) للصديق حاج أحمد الزيواني سيمر قراءة على عرض ثقافي اجتماعي منشور فيها باتساق حيث عايشه كل صحراوي بهذه المنطقة؛ عمل من خلالها الروائي باستحضاره ونعته بدقة لتتجلى صورا حية كالميلاد والأغاني الفلكلورية، والأكلات الشعبية المرتبطة بالأفراح والمناسبات؛ كالأعراس والختان وحفظ القرآن الكريم، والأمثال الشعبية التي لا تفتأ تعبر عن الثقافة الصحراوية عموما وتوات خصوصا.

والمناطق الصحراوية بالجزائر غنية بالعادات والتقاليد يمارسها الإنسان هناك في حياته اليومية من المهد إلى اللحد مرورا بمراحل الطفولة والشباب ومن ذلك ذكر الصديق حاج أحمد في روايته مملكة الزيوان طقوس الولادة وما قبلها وما يصاحب ميلاد الطفل من اهتمام بالغ لباسا وعقيقة وأغاني شعبية وتعهد بالرعاية، والدعاء للمولود بالصلاح والنماء والنفع للبشرية، وهانحن نستقي بعض الممارسات من خلال الرواية ومنها:

1- ميلاد الإنسان الصحراوي:

بالرغم من تطور الطب حديثا وما يصاحب هذا التطور من كثرة وفيات الأجنة وعدم معرفة أسباب ذلك وإن نجا الجنين لم تنج والدته من عملية قيصرية، تذكر الرواية أن ميلاد الطفل في إقليم توات يعتمد على ولادته تحت سقف المنزل بنجاح لما توليه النسوة القابلات من أهمية بالغة فرحا بقدوم فرد جديد بإقليم توات، تبدؤها الحامل بالوحم وتناولها لأطعمة معينة حيث جاء في الرواية قول الكاتب: "**بعدما قضيت معها صداقة دامت تسعة أشهر، كانت تعكر صفو ودها فترات من الوحم واختلاط في حب الأطعمة وكرهها فأحيانا تشتهي أطعمة ليست في فصلها ...** "[9]، لينتقل بنا مباشرة إلى فترة المخاض وآلامه وكيف تقدم لها النسوة المساعدة حيث قال: " **حين تقلصت عضلات رحم أمي وقذفت بي على هذا الوجود المبكي يا سادتي، أول شيء حاولت القيام به ... استهللت صارخا**"[10]، بعدها تعمل إحدى العجائز تسمى الداية بلهجة أهل توات؛ ويقصد بها الجدة بقطع الحبل السري، ثم يدفن أو يرمى في ماء ساقية أو نهر جار للتبرك بالرزق الطيب للمولود الجديد، وقد سميت الداية في الرواية بعيشة مباركة بنت بلة.

تواصل الداية الاهتمام بالمولود ووالدته حيث تغسل المولود وتلبسه جديد الثياب ثم تضعه في حجر والدته كي تقر عينها فتكحل عيناه بالكحل، فيتحلق الجميع حوله ينظرون إليه فرحين مهللين.

ومن طقوس المواليد الجدد بالصحراء الجزائرية انتظار اليوم السابع بعد الميلاد (يوم السبوع) لإقامة مأدبة العشاء المسماة بالعقيقة ويقصد بالأخيرة (الذبيحة) وهي عادة العرب منذ القدم ثم جاء الدين الإسلامي الحنيف ليحافظ عليها، حيث تعبر عن فرح أهل المولود واستبشارهم به، وقد ذكرت الرواية هذه العادة في قول الروائي: "**لما بلغت الشمس ضحوتها الربيعية أرسل أبي مبارك ولد بوجمعه ... فذبح الضحية المسماة ب(خروف الدمان) ...** "[11]؛ والدمان هو نوع وسلالة من الخراف في الجنوب الكبير بالجزائر وشمال مالي والنيجر، تتسم بضخامة الحجم واللحم الطري الوفير، وما يصاحب عملية ذبح الأضحية نجد تطهير المولود وغسله بالنسبة لمجتمع توات، هذا الغسل لا يكون بالماء وإنما بعد ذبح الأضحية وسلخها تدخل الأم مولودها في تجويف الجلد إذ قال الكاتب: "**فمسكت أمي برجلي لأعلى ورأسي لأسفل وأدخلتني في جوف ذلك الجلد جهة بطنه ...** "[12] وتسمية المولود الجديد عادة تكون على اسم جد المولود؛ اعتزازا بالأجداد وتخليدا لهم بتكرار تسميتهم أبا عن جد وتبركا بمآثرهم وبطولاتهم وأخلاقهم، حيث تذكر الرواية: " **قال أبي للحاضرين وهو ينظر للطالب الحاج الكبير، ولأعمامي الكبار: " لقد أسميته على والدي لمرابط"**[13]؛ وفي هذا اليوم السابع يدعو رجل من العائلة، حيث كان الدا علي في الرواية العم الأكبر عمرا من خلال قول الكاتب: **" بادر أكبر الأعمام بتهنئة لوالدي حيث قال: " اللهم اجعله من العائشين**

والعاقبة لإخوانه العادمين

ويقطع هذي الدبيبة"[14]

وهي من سنن ديننا الحنيف حيث يؤذن للمولود ويدعى له، كي يصير رجلا صالحا ذو عمل بار، طائع لوالديه. وقد جاء في الرواية أن أصغر أعمامه قد أذن في أذن المولود (لمرابط)، وقد ذكر في الأثر الديني أن للعدد سبعة رمزية خاصة عند أهل الصحراء والمستمدة من الشرع الإسلامي؛ حيث أن الله خلق سبع سموات طباقا، ثم أن المولود حديث العهد خرج إلى حياة جديدة وصار من عدادها ومعدودا فيها

2- عادة الختان:

أما عادة الختان فهي سنة شرعها الدين الإسلامي وهي شكل من أشكال طهارة الظاهر وقد ذكرها الرسول الكريم عن الفطرة ويرمز بها إلى الإسلام في قوله: " **الفطرة خمس؛ الختان، والإستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط**"[15]؛ وقد روي هذا الحديث الشريف في صحيحي البخاري ومسلم.

ويكون الختان بقطع جلدة زائدة، وهو من أهم العادات والتقاليد التي يهتم بها المجتمع الصحراوي لتعظيمه شعائر الدين، ولما له من رمزية شائعة عند الإنسان العربي والمسلم أيا كان وفي مجتمع توات يكون الختان عادة اليوم السابع أيضا أو اليوم الأربعين وهناك من يفضل بلوغ المولود العام أو العامين أو الأربع؛ وقد ذكر الروائي وصفا رائعا لطقس الختان بمعية صديقه في يوم واحد وما أحاط عملية الختان من تحضيرات للأكل واللباس والختان وموسيقى وأغاني شعبية حيث قال صاحب الرواية بأنه قد ألبس عباءة بيضاء ووضع الكحل في عينيه هو وصديقه الداعلي، ثم تلجأ الأم والأب بإعداد الصبي معنويا وروحيا لهذه العملية السريعة قبل أن يستقدم الطهار أو بلغة أهل توات ((**الزيان**)) ويكون عادة شيخ متمرس معروف لدى الجميع، البركة على يديه، فيحمل الطفل ويوضع داخل غرفة ليمسك به رجلين من أقاربه ثم يغطى وجهه بقميصه لتتم عملية الختان بصورة سريعة تجعل من والدته فرحين بتطبيق سنة من هدي الرسول عليه الصلاة والسلام وقد ذكر الروائي

هذا المشهد في قوله: " **حملني عمي حمو، فضمني على صدره، ممسكا بيدي على ثنية ساقي بفخذي تاركا فرجة بين رجلاي، المثنيتين، المطويتين، تسمح للزيان على راحته ... ..**"

وقت الختان تنهمك النسوة في إعداد طعام الوليمة (وليمة الختان) حيث يكون فيها الطعام تقليديا كالكسكس ومرق اللحم، ويعد الختان للصغار من الذكور تمييزا لهم عن باقي سكان المعمورة ممن لا يدينون بالإسلام، حيث حث عليه الشارع الحكيم لما له من فوائد جمة على المسلم من طهارة ووقاية ونظافة وصحة لصاحبه.

بعد عملية الختان يأتي الحلاق لحلق شعر الصبي، وقد ذكر الصديق حاج أحمد ذلك بقوله: " **في عشية ذلك اليوم ... بعد أن عملوا لنا حلاقة التقوريرة برأسينا أخرجونا لزيارة ضريح ولي قصرنا، سيدي شاي الله على إيقاع فرقة ...** " ؛ حيث هناك يدعون للصبي المختن في جو من الفرح والأمل، يحيط بالجو فرقة صحراوية وأغاني شعبية تسمع فيها آلة "**القرقابو**" بوضوح، لتخضب أيدي وأرجل الصبي بالحناء، هذه الحناء التي مزجت بعدة أعشاب ومواد ذات روائح عبقة وقد ذكر صاحب رواية مملكة الزيوان ذلك في قوله: " **فوضعوا لنا الحناء في أيدينا وأرجلنا من طرف أكبر شريفات القصر** ... "

ثم تقدم للحضور أطعمة تقليدية؛ كالكسكس والمردود، وجدير بالذكر أن المجتمع الصحراوي يغتنم فرصة نصف (اليوم الخامس عشر) أو ليلة السابع والعشرين من رمضان المسماة "ليلة القدر" أو المولد النبوي الشريف وعاشوراء وعيد الفطر، كي يختن فيها الصغار تبركا بهذه الأعياد لما لها من رمزية وبعد ديني وصوفي صارخ.

3- زيارة أولياء الله الصالحين:

وعلى ذكر الولي الصالح ((**سيدي شاي الله**)) بتوات كان لابد أن لا نغفل عادة من عادات المجتمع الصحراوي والتي يمكن إدراجها في خانة التدين أو سوسيولوجيا المجتمع الصحراوي؛ وتتمثل هذه العادة في زيارة الأولياء الصالحين بالأضرحة؛ هؤلاء الأولياء المشهود لهم بكمال الأخلاق وزهدهم في الحياة، وحفظهم وتحفيظهم للقرآن الكريم ونشرهم لتعاليم الدين الإسلامي في سالف العصور والأزمنة؛ حيث أن زيارة الأضرحة معتقد شعبي تحدثت عنه الرواية في عدة مواضع، وبين فيها الروائي أثرا ماديا إسلاميا مقدسا يعد امتدادا للمذهب الصوفي إذ يقصد المجتمع التواتي والصحراوي عموما أولياء الله قصد التبرك وداء الله عز وجل عن طريقه وقد جاء شرح ذلك في قول محمد الجوهري: " **تلك الفئة من الشخصيات الدينية التي تحظى بتكريم خاص من جانب الناس، ولكنها لا تنتمي مع ذلك إلى فئة الأنبياء أو غيرها من الشخصيات الدينية المقدسة**"[16]

وما يروع زائر الضريح تلك الهيبة والرهبة والخوف في نفس زائره حيث يرتبط هذا المكان بأشراف منطقة صحراء توات، كما يرتبط بكل ما هو طهر وسماوي وقد ذكرت رواية ((مملكة الزيوان)) ما يأتي: "**مشى الموكب بنا حتى وصلنا عتبة الضريح سيدي شاي الله، المجير بالجير الأبيض الناصع، فأجلسونا عند عتبته الخارجية، على دكانة ملساء رفقة صديقي ... فوضعوا لنا الحناء في أيدينا وأرجلنا ...** "[17] وحسب المجتمع الصحراوي بتوات تعد زيارة الأولياء الصالحين غير ضارة بل نافعة كل حسب اعتقاده بعد توحيد الله عز وجل، وليس كما يفهم البعض من أن الزائر للضريح يدعو الولي الصالح مباشرة دون الله عز وجل والعياذ بالله؛ فالأمر لا يعدو أن يكون معنويا لا ماديا. وقد طبعت هذه العادة في نفوس الأجيال وصارت تراثا شعبيا ومددا معنويا وروحيا

يسعدهم دينيا ودنيويا، كما يقربهم إلى الله عز وجل عن طريق هذا الولي الصالح، وزيارته من عادات وتقاليد أهل توات غنيهم وفقيرهم، عالمهم وأميهم، صغيرهم وكبيرهم بل ويجعلون يوما صحراويا سنويا يعرفه الخاص والعام معروف باليوم والشهر من كل عام للاحتفال بزيارة الولي الصالح برقان- أدرار- حيث ذكر الروائي هذا بقوله: " **ذات ربيع؛ صادف نزول والدي لحضور زيارة الولي الصالح الشريف مولاي الرقان يبرقان والتي كان يحرص كل عام في عودته من تجارته ببلاد السودان لحضورها ...** "[18]

هذه الزيارة والاحتفال تعد من أكبر الزيارات لهذا الولي الصالح، حيث يجري اسمها على كل لسان في ولاية أدرار وما جاورها من مناطق صحراوية، ويصادف وقتها موسم الحصاد بأدرار، تجتمع فيها الفرق الفلكلورية حيث يؤدون في ساحة الولي الصالح رقصات بالبارود متحلقين؛ وهي إحدى الرقصات الشعبية هناك، تسمع من خلالها أدعية وابتهالات تثني على هذا الولي الصالح وتعدد أفضاله وتبرز صلاحه من خلال التمسك بعروة الدين الحنيف وقيم النبي؛ نبي الأولين والآخرين، فقد جاء في الرواية قول الكاتب: "**لما صادف حضوره لموسم تلك الزيارة، فكر في ختاني ...** "[19]

وإذا ما ذكرنا كخلاصة عن زيارة الأولياء الصالحين بالصحراء الجزائرية وتوضيحا يجب أن نذكر أن الإنسان الصحراوي قريب من القرآن الكريم ويفهم معنى التوحيد جيدا من خلال تحفيظ القرآن والكتاتيب ورجال العلم، وتتبع سير الشرفاء وكبار السن الملازمين للمساجد، فإن الضريح لدى الإنسان الصحراوي لا يعد الملجأ الأول والأخير له، بل هو في المخيال الشعبي الصحراوي أداة ووسيلة رمزية تقوي صلته بعباد الله الصالحين، وهي مكان للبركة في تفكيره وهي موقد روحي يجعلها ميزانا ومنبها له، ويعتبرها من سلامة الدين والتمسك به، فكيف لمن يحفظ القرآن الكريم أن لا يرفع يديه للأعلى ويسدلهما للأسفل؟

4- فضاء الثقافة الشعبية الصحراوية:

تعد ثقافة أهل توات شكلا من أشكال التعبير المنطوق والذي يمثل الهوية والحضارة المختزنة في الذاكرة الشعبية الصحراوية إذ تعد عامل نشاط المجتمع فكريا؛ فهي تشمل أفكارا وفلكلورا وثقافة للترويح ولرفع المعنويات، وللحاجات المادية كالأعراس والتظاهرات الثقافية والأيام السنوية في منطقة أدرار عموما، فكل هذه النشاطات من تراث وثقافة تنتقل من جيل لجيل؛ وترسخ الفنون الشعبية بمنطقة توات.

وقد خص الروائي في روايته بعض المقاطع السردية للكشف عن مدى تمسك أهل الصحراء بالدين الإسلامي وطرق المحافظة عليه ونشره أبا عن جد، وتعليم الناشئة لهذا الدين الحنيف من خلال تحفيظ الأطفال القرآن الكريم؛ وهي عادة يحرص عليها سكان أدرار عموما، وأهل توات خاصة..

إن الإنسان الصحراوي يستمد ثقافته مما يتوارثه أهل الصحراء؛ من عادة حفظ القرآن الكريم حيث يحرص سكان أدرار عموما وأهل توات خاصة على تعليم أبنائهم منذ نعومة أظفارهم بالكتاتيب والزوايا؛ فقيرهم وغنيهم، فلا فرق بينهم. والتعليم القرآني بالمجان للصغار، كما أن الطالب؛ أو معلم القرآن لا يتقاضى أجرا على تعليمه الصغار كلام الله عز وجل بمنطقة توات بل يكتفي بالهدايا من حين لآخر؛ يحفظهم القرآن ويعلمهم الحديث النبوي الشريف والفقه والآداب قبل ولوجهم للمدرسة الابتدائية أي قبل السنة السادسة من أعمارهم.

تدعى الكتاتيب عند أهل توات بلفظة ((**أقربيش**)) وتعني المدرسة القرآنية أو الكتاتيب القرآنية باللهجة الزناتية، حيث يكون يوم دخول الصغير لأقربيش يوما غير عادي يلبس فيه الطفل عباءة وشاشا أبيضين

ويكتحل وقد حضر له أهله لوحا خشبيا وصلصالا يدعى عند أهل توات ب((**صمصاد حليبة**))؛ وصمصاد حليبة هو طين ناعم يميل إلى الصفرة، يستعمله الصبية لمحو ما درسوه سابقا من خلال طلي اللوح به، وقلما من يراع، ليجد معلم ومحفظ القرآن قد حضر قنينة مملوءة بالسمغ وهو ما يسمى عندهم ب" **الدو اية**" (**الدواة**)، ويكون أول يوم للتعارف؛ يكتب فيه الشيخ المعلم أعلى اللوح الخشبي "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ" البسملة، والصلاة على النبي الأكرم، كما يكتب لهم الحروف الألفبائية الأولى: الألف والباء والتاء والثاء ويكررونها معه حتى الحفظ.

كما يورد الروائي عادة عظيمة عند المجتمع الصحراوي تتمثل في مناسبة "**العرفة**" حيث يقول: " **هذه المناسبة التي كنا ننتظر فيها لبس الجديد، لكثرة صداقتنا للقديم، حيث يزخرف لنا سيدنا لوحة أكبرنا سنا وحفظا، وأهدؤنا طبعا وأوقرنا عقلا، ثم يتقدمنا ونطوف معه بأرجاء القصبة والقصر، وهو ممسك باللوح، وهو يقول عند كل (عتبة) بيت نقف عندها**":

" نستفتحكم بسم الله وهو خير الفاتحين

ونردد بعده: اللهم أمامين ...

ليغفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر

ونردد خلفه كالعادة: اللهم أمامين ...

ليقول بعدها: ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما

... ... اللهم أمامين ...

... . ويذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا..

ليردد بعده كالعادة: اللهم أمامين ...

والعتبة هي عادة تواتية قديمة جدا يقوم بها الصبيان بالكتاب وتقام مرتان في العام الواحد؛ موعدها الأسبوع الذي يسبق عيدي الفطر والأضحى.

ثم يقول في الأخير لأهالي القصر: "**عدسوا أوبذروا، ولايبقى شي من العو ايد** "[20]؛ أي واصلوا هذه العادة الموجودة بقصور توات بأدرار يحث فيها الناس لغرس بذور العدس والفلفل، ثم يقدم أهل توات قدرا من القمح (الدقيق) أو شيء من البيض والتمر أو مقدار من الدراهم والتي تمنح كهدايا فيما بعد لمعلم القرآن الكريم، وهي مناسبة دائمة تعلم الطفل وتربيه على معنى الدعاء واحترام المعلم ومن شأنها ان تعرف الطفل الصغير جنبات سكناه وأهالي قصره، كما تحث الصغار الذين لم يصل سنهم ومقدرتهم على الحفظ بعد أن يستعدوا ويتعودوا على هذه العادات الثقافية المتوارثة.

ومن أعظم مصادر ومراجع الثقافة الصحراوية عادة ختم القرآن الكريم عند أهل توات وتسمى ((**السلكة**)) أو **السلوك** بتسكين السين، أي أن الصغير قد سلك على كتاب الله عز وجل من الفاتحة إلى سورة الناس حفظا وقراءة.

هذه العادة ((**السلكة**))؛ التي يدعو فيها أهل الطفل سكان أهل القرية والأصحاب بغية إقامة وليمة فيها بمناسبة حفظ ابنهم للقرآن الكريم، وقد ذكر عز الدين جعفري هذا في قوله: " **و أثناء الإحتفال يحضر الطفل لوحة ويرسم عليها صورة مسجد ويكتب فيها الثمن الأول من حزب يستبشرون من سورة آل عمران، وبعد ذلك يرتدي الطفل أجمل الثياب وعليها برنوس أبيض يضع تحته لوحته حيث لا يراها أحد، ويطوف بالقصر**

والصبية يطوفون معه، فيقدم له السكان ما جادت به أيديهم، وكل ذلك من أجل بعث روح المنافسة بين المتعلمين ومكافأة المجتهدين ليستمروا ويظهر أثر ذلك في الأسبوع الموالي حيث تزداد عزيمة الصبية أكثر على التحصيل"[21]؛ والهدف من إقامة هذه الولائم هو تقديم المكافآت لهؤلاء الأطفال تشجيعا لهم، من أجل أن يكمل الحفظ ولبث روح العزيمة والإرادة قصد الحفظ والإجتهاد أكثر؛ وقد ذكرها الروائي بقوله: **" إلى أن وصلنا مطلع ثمن يستبشرون من سورة آل عمران، فأقاموا لنا مناسبة تسمى السلوك، كتلك التي أقيمت لنا يوم دخولنا غير أنها تكبرها مظهرا، واحتفاء، وعطاء للأبناء من الآباء"**[22]

وبعد الدخول للمدرسة القرآنية في سن مبكرة تمهيدا للمدرسة الإبتدائية، وهي عادة كل الصغار بتوات أي في السنة الرابعة والخامسة من عمر الصبي، حيث يتلقى مبادئ التعلم الأولى وتحمي من خلالها العقيدة الإسلامية وللوعي والتعرف على الهوية الوطنية من خلال ترسيخ مقومات المجتمع الجزائري ككل.

التعليم الأكاديمي:

التعليم الأكاديمي على غرار المجتمع الجزائري ككل عرفه المجتمع الصحراوي والتواتي بعد الإستقلال وهو ما سمي بجزأرة التعليم؛ أي جعله جزائريا يتوافق مع دين الدولة وتوجهاتها وطموحاتها، حيث ركزت على التعليم والتربية من أجل النهوض بالأمة وتنمية الوطن، والتعليم في المناطق الصحراوية لا يقتصر على الأغنياء والفقراء فالجميع لهم الحق في التعليم، ويظهر ذلك في لباسهم وأدواتهم، وقد استحضر الروائي مناهج ومراحل التعليم في توات الذي ينصب ضمن الجانب الثقافي، فقد ألفيناه يخوض غمار الحديث عن التعليم الأكاديمي الرسمي الذي يلي مرحلة الكتاتيب والزوايا فنجد الروائي الصديق حاج أحمد الزيواني يستحضر صورا ثقافية تظهر في صورة المدرسة والتي تعكس صورة الإنسان الصحراوي كمعلم ومتعلم قصد رصد الجانب الحضاري للبيئة الاجتماعية للقطر الصحراوي الجزائري، حيث تعد أولى المراحل التي يمر بها الطفل في حياته الدراسية والثقافية التي ذكرها الروائي:

1) مرحلة التعليم الابتدائي: وهي مرحلة التحضير القاعدي لنفسية الطفل وتنمية معارفه، حيث يتعلم في مدة خمس سنوات الحروف بداية والحساب حيث ذكر الروائي كلاما عن تجربة التعليم في السن السادسة من خلال قوله عن المعلم: " كان حريصا على تعليمنا الحروف أولا، وتصحيح النطق بها، فقد كانت رواسب النطق الخاطئ بها عندنا وفيرة، بالرغم من تلقينها أولا بالكتاب ... "___ الرواية ص64، ليصل في نهاية هذه المرحلة لأن يقرأ ويكتب ويحل مسائل في الهندسة والحساب؛ في مرحلة التعليم الابتدائي هناك امتحان رسمي وطني في نهاية العام الدراسي؛ من خلاله يتحصل المتعلم على شهادة التعليم الابتدائي، والتي تمكنه من ولوج عالم المتوسطة؛ حيث يمثل التعليم الابتدائي دعامة معنوية وقاعدة تعليمية يجب تشييدها بإتقان في سبيل المتعلمين

2) أما **مرحلة التعليم المتوسط** فتدوم سنوات أربع تنتهي بامتحان رسمي يسمى عند العامة بالأهلية ويقصد بها شهادة التعليم المتوسط والمتوسطة أو ما اصطلح عليها الروائي بالإعدادية حيث نعتها بالمختلفة ومرحلة الصعوبة خصوصا وأنها كانت في "**رو ايته**" مؤسسة تعليمية مختلطة تجمع تلاميذ الطورين المتوسط والثانوي حيث قال: " **كانت المؤسسة المختلطة بالنسبة لنا أكثر تحررا، نظرا لمناهجها المنفتحة، وكذا أساتذتها وتلاميذها، فكانت مناهجنا تتقاطع بشكل كبير مع مناهج الداعلي، في معارف الرياضيات، الجغرافيا**

والتاريخ والعربية"----- الرواية ص 76 هذه المرحلة التي يتعلم فيها المتعلم معارف جديدة ويتعرف على أساتذة وأصدقاء جدد ومن خلالها يصقل المتعلم شخصيته.

3) وفي **مرحلة التعليم الثانوي** التي تستغرق ثلاثة أعوام في شعب العلوم أو الآداب تنتهي بامتحان رسمي وطني يتوج من خلاله الممتحن بشهادة تسمى "**البكالوريا**" حيث ينتقل من خلالها التلاميذ من مرحلة التعليم التربوي إلى مرحلة التعليم الجامعي؛ بدخوله المدارس العليا والوطنية أو جامعات الطب والصيدلة أو علم الإقتصاد والبتروكيماويات أو شعب العلوم الإنسانية، أي حسب الرغبات والمعدل المتحصل عليه في إمتحان البكالوريا الذي لم يغفل عليه الروائي بل تحدث عليه بشغف وحنين كبيرين حيث قال: " **كنت أتلذذ بانتشائي ونجاحي في شهادة البكالوريا التي فزت بها خلال ذلك الصيف الرائع الجميل، وحسبك في القصور أن تكون ناجحا في البكالوريا، معنى هذا أنك سوف تكون محظوظا فالقصر كله يجري اسمك على لسانه ...** "[23]

ويولي أهل الصحراء عناية خاصة بالتعليم أيا كان نوعه فهم يبجلون ويرفعون أهل العلم فوق رؤوسهم ويقدمون صاحبه في كل اجتماعاتهم ومحافلهم، فترى أولياء المتعلمين يبذلون قصارى جهودهم في سبيله، حتى أنهم يتقشفون على أنفسهم أكلا ولباسا وراحة إلا على أبنائهم المتمدرسين فهم الشغل الشاغل من يوم الدخول الاجتماعي في كل عام حتى العطلة الصيفية فرحين بنتائجهم وتحصيلهم الدراسي.

فضاء المكان؛ القصور ب "توات":

أسهمت الرواية في إماطة اللثام على الجانب المعماري الذي يؤثث فضاء الصحراء، حيث تجاوزت تلك النظرة التي كرستها وسائل الإعلام المحلية خاصة، والتي روجت لندرة الناحية المعمارية في الصحراء، واقتصرت تلك النظرة على إبراز الخيمة؛ كبيت وحيد وأوحد ونمطي للإنسان الصحراوي يقيه لبحر والقر صيفا وشتاء، هذا المنزل المرتبط بنمط المعيشة وحياة الحل والترحال. في حين كشفت الرواية عن فضاء متميز، وهو فضاء القصر؛ الذي كان يتخذه القبائل الصحراوية كبيوت ذات هندسة فريدة يعيشون داخلها، لكن نجد أن قصورهم تختلف عن باقي القصور إذ ذكر في روايته واصفا القصر كمكان رائع عجائبي.

كما ذكر الفيلسوف الفرنسي (**غاستون باشلار**، 1962) في كتابه" جماليات المكان": (**إن المكان الذي ينجذب نحوه الخيال، لا يمكن أن يبقى مكانا لا مباليا، ذا أبعاد هندسية وحسب، فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط، بل بكل ما في الخيال من تحيز**)، فللمكان قيمته لدى الأدباء، وله مكانته عند النقاد والمؤلفين فليس المكان جزء من التضاريس، والأشكال فحسب، بل هو عواطف وأخيلة، وهذا ما سلكه الكاتب والروائي الصديق حاج أحمد الزيواني في رواياته؛ **مملكة الزيوان، كامارد، ومنا ... قيامة شتات الصحراء**؛ حيث تفطن كابن من أبناء الصحراء لوعي الكتابة عن مكان يعرفه أكثر من غيره، حيث وظف الروائيون الجزائريون على اختلاف توجهاتهم متخيل الصحراء، حيث وظفوا جماليات الصحراء في أجساد نصوصهم وتمفصلات سرودهم، بدء بعتبة العنوان، ومرورا بالشخصيات والأحداث والتوظيف المشهدي، وصولا إلى لغة المكان بأقلام العارفين بالمكان"، وقال صاحب مجموعة" **حائط رحمونة** " لضفة ثالثة: " **يتجلى حضور الصحراء في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية بالخصوص، حيث لم تغب جمالية الصحراء، التوظيف الفني في السرد الجزائري**".

وقد استثمر الروائي الصديق حاج أحمد تقنية **مصاحبات الخطاب** بكثرة، وهذا للكشف عن علاقة فضاء القصر الروائي المتخيل بالفضاء المرجعي، فيؤكد للقارئ أن هذه القصور ليست محض صدفة خيال، وإنما هي قصور واقعية مما يؤجج الرغبة لدى القارئ في اكتشافها وزيارتها، فقد جاء في هامش المتن على الصفحة السابعة قوله: " ... **ما شاء الله له أن يرى، من أوصاف الواصفين للجمال وفنون أذواقه، بمخطوطات خزائن مملكتهم الزيوانية بقصور تمنطيط وتليلان، وملوكة، وزاوية كنتة وزاوية الشيخ المغيلي، وأنزجمير وأقبلي، وأولاد سعيد، والمطارفة، بل قد ساربه الحال حتى بلاد السودان الغربي، فبلغ حواضرها العلمية** ..."[24]. كما عمل على تعريف مقتضب للقصور المذكورة في قوله آنفا؛ نحاول أن نعرف ببعض القصور؛ على أن معنى القصر بأدرار **يتمثل فيما يعرف بـ" القصبة" قديما؛ وهي بيوت الأشراف ذات السور العالي، والبرج والمسجد ... تسكن هذه القصبة عائلات يتوزعون على بيوت طينية، بحيث ينتهون غالبا إلى جد واحد، ومن باب اطلاق الجزء على الكل صارت القرية كلها تعرف باسم القصر**. ومن قصور أدرار نذكر:

أ) تمنطيط: وتعود تسمية القصر بتمنطيط – حسبما ورد في مخطوط" البسيط في أخبار تمنطيط" لمؤلفه محمد بن بابا حيدة – إلى الأصل العجمي وهي مركبة من جزءين "أتما" وتعني النهاية "تط" وتعني العين كما أن هناك إشارة أخرى لمعنى تمنطيط فهي تركيب لكلمتي " أمان" و"تيط" وتعني العينح ويعد قصر تمنطيط من أبرز الحواضر العتيقة والعريقة التي عرفتها منطقة صحراء وشمال افريقيا منذ القدم، حيث ظل شاهدا تراثيا حيث استمد قيمته التراثية من موقعه الجغرافي؛ الذي يقع في قلب إقليم توات بهندسة معمارية صحراوية متميزة، تستقطب عبور القوافل التي كانت تعبر الصحراء، فازدهرت الحركة التجارية بهذا القصر واستقر به السكان وتوفرت به المياه بكثرة فاستغلها الانسان عن طريق نظام الفقارة ومارس بها نشاطا فلاحيا رائدا، مما جعل قصر تمنطيط من أعظم الحواضر الافريقية اقتصاديا وفكريا وعلميا، حيث استقطبت شخصيات عظيمة في مجال القضاء والعلوم الشرعية، كما يعيش بها مزيج من القبائل شكلت نسيجا عمرانيا منسجما، متسقا يسكن عمرانا تقليديا مشتركا؛ في المواد الأولية، وهندسة البناء وتقنية الطرقات والممرات.

هذا البناء الذي يعتمد على "**القصبات**" ومنها: قصبة توفاغي، وقصبة تاهقة، وقصبة أولاد محمد، كما يتواجد بقصر تمنطيط عدة أضرحة منها ضريح سي بايوسف محمد ومخزن الشيخ المغيلي ... دون أن ننسى أن الجوانب الاجتماعية والثقافية والدينية وما لها من أثر بالغ في تشييد المساجد والمنازل، مما أعطى لقصر تمنطيط طابعا خاصا متميزا. كما عرف سكان هذه المنطقة حرفا تقليدية واشتهروا بحرف تقليدية تعتمد الصناعة اليدوية؛ حيث برعوا في صناعة الفضة، والطين والحدادة، والنسيج باختلاف أنواعه؛ خصوصا بأجزاء النخل كسعف الجريد.

ب) تيليلان أو تينيلان: هي إحدى قصور أدرار بالجنوب الغربي الجزائري الكبير، يقع هذا القصر شمال مدينة أدرار، وأصل التسمية تعود إلى اللهجة الزناتية حيث تسمى" تينيلان" وتتركب الكلمة من جزءين؛ تين أي مكان وإلال أي الأحرار وتعني الكلمة ككل؛ مكان الأحرار، ويسكن تيليلمرابطون عرب أصلهم من بودة، ويعود تأسيسها إلى الحاج أحمد بن يوسف من أولاد أنقال بعد انتقاله إليها عام 1647 ليؤسس بها زاوية.

ويعتمد أغلب سكانها على الفلاحة والزروع والتي يغلب عليها غرس النخيل واعتماد السقي بنظام الفقارة حيث يود بهذا القصر خمس فقارات مشهورة وهي: فقارة شعب وبغداد والزاوية، والسبخة وتاركمون.[25]

ج) ملوكة: وهو قصر من قصور أولاد احمد بأدرار بالجنوب الغربي الجزائري، حيث يقع هذا القصر غرب مدينة أدرار، وتعود التسمية إلى أن البلباليين اشتروها فصارت ملكا لهم فشيدوها وحرصوا على تحسين مظهرها المعماري، كما اعتمد سكان ملوكة في كسب الرزق على التجارة والفلاحة، كما يستعمل فلاحو ملوكة على غرار كل القصور على نظام سقي نخيلهم بالفقارة؛ حيث توجد فقارتين اثنتين بها وهما الجابية وسهيل.

ومن أشهر شخصيات ملوكة وأعلامها نذكر سيدي الحاج بلقاسم البلبالي؛ وهو ولي صالح وله ضريح بملوكة، يزار كل عام.[26]

زاوية كنتة: والتي سميت باسم مؤسسها وهو الشيخ سيد أحمد الرقاد الكنتي، حيث تعد زاوية كنتة من أقدم الأماكن بمنطقة توات؛ تتشارك الأرض شمالا مع قصر إغيل بتامست، أما جنوبا فتجد قصر بوانجي بتراب أنجزمير، أما غربا فتحاذيها تندوف، وعرفت ملوكة تطورا اجتماعيا وثقافيا؛ تشكل فيها القصور سلسلة خطية ممتدة من قصر أظوى جنوبا، حيث تضم زهاء عشرين قصرا منها: أولاد الحاج، تبركانت، مناصير، تاخفيفت، زاوية الشيخ، أظوى.[27]

لنجد أن الرواية عرفت بهذا الإرث الحضاري للعمارة في الصحراء الجزائرية وبالضبط في جغرافيا إقليم توات، بعدما ألف قارئ الرواية أن يسمع وحسب عن الخيمة ليكتشف أن هذه المساحات الشاسعة قصور آسرة ليست في هندستها المتميزة فقط.

المظاهر الثقافية لمجتمع صحراء توات "أدرار":

أ)الأمثال والحكم الشعبية:

لقد اهتم العرب منذ القدم بالأمثال والحكم الشعبية فهي ملخص حياتهم، وزبدة تجاربهم، ليصير المثل في المناطق الصحراوية ضربا من ضروب الحياة وركيزة ثقافية تعد مرجعا للخلف عن السلف، على مر الأزمنة والعصور، ونذكر تعريفا للمثل الشعبي على أنه: (**تقطير لقصة أو حكاية والتي يعبر المثل عن مضمونها**)[28]

وتؤثر الأمثال الشعبية تأثيرا إيجابيا على الوعي الجمعي الصحراوي، ومن خلال تصفحك لرواية مملكة الزيوان تلاحظ حضورا قويا للمثل الشعبي كشكل من أشكال التعبير الشفهي الذي يختصر الكلام، ومايجب أن نلفت النظر إليه هو أن كل الأمثال الشعبية التي ذكرها الروائي حاج أحمد الزيواني في روايته جاءت على اللهجة التواتية ومن الأمثلة نذكر:

"**عش عش يا الباس**"؛[29] ومعنى المثل يتمثل في طرد كل الشرور والأضرار عن الإنسان، أي ارحل ارحل أيها البأس.

" **الما إيلا نكسر في الجنان ما ضاع**"؛ ويقصد به أن الخير أينما وقع نفع وإن حدث له مكروه، أي أن عواقب الخير سليمة وإذا ما ذكرنا المثل فصيحا نقول: الماء إذا انفجر وفسدت وجهته، فإنه سيبقى داخل الجنان وبالتالي سيبقى نافعا لا مضرة منه.

"**عدسوا أو بذروا ولا يبقى شي من العوايد**"[30]؛ أي اغرسوا العدس والبذور من قمح وفلفل وطماطم ... ولا تتركو أي عادة من العادات كي لا تزول وتبقى أبا عن جد

"**اللسان ما فيه عظم يا ولد بويا..**"[31]؛ أي أن القول باللسان لا يتوافق مع ما يكنه الإنسان من أحقاد ودسائس، وأن اللسان فيه النفع والضرر حسب استخدامه.

"**تاكل الغلة وتسب الملة**"[32]؛ ويقصد بهذا المثل الشائع أن الإنسان الحقير يستفيد من مكان أو إنسان، وعوض أن يشكرهما ينهال عليهما سبا وشتما في غيابهما؛ وهو ما يفسره العرب بالفصحى بنكران الجميل والخير.

" **البنت ... كي الرقبة موكولة أو مذمومة**"[33]؛ فلحم رقبة الشاة يؤكل ولكنه غير مستحب مثل بقية أعضاء الشاة كلحم الفخذ والصدر والكتفين مثلا. وهو ما يفسر نية الإنسان وجشعه في أن يستفيد ولو على حساب من يكره.

وقد ورد ذكر **القرآن الكريم** الأمثال في قوله تعالى من سورة يس؛ الآية78: ((**وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم**)) ويقول تعالى في سورة الحج الآية 73: ((**يا أيها الناس إذا ضرب مثل فاستمعوا إليه**)) كما قال عز من قائل في سورة إبراهيم الآية الخامسة: ((**يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون**)).

وبما أن الصحراء فضاء يلهمك فإن الأمثال في حياة مجتمع توات بأدرار له عاداته وتقاليده فهي عبارة عن حكم خالدة تأخذ سامعها وتغو صبه في بحر من المعاني والحكم الصادقة والمستمدة من تجارب ووقائع حقيقية، تعبر عن فطنة وتوقد ذكاء إنسان الصحراء وثقافته الواسعة؛ هي أمثال وحكم ولدت عن تجارب وهي نتاج تأثيرات ووقائع إجتماعية وثقافية تراعي المبادئ الفاضلة والقيم المثلى.

ب) الأغاني الشعبية بمنطقة توات "أدرار":

تعد الأغاني الشعبية شعرا شعبيا يتميز بالوحدة الموضوعية؛ فهو لون من ألوان الثقافة والتراث الشعبي، ويكون الشعر ملحونا يلقى ويغنى في مناسبات معينة، تغنيه النسوة كما يغنيه الرجال وقد تجد أطفال وبنات صغار يلعبون ويغنون ما قد سمعوه في مناسبات دينية أو وطنية أو في الأعراس؛ ففي المجتمع الصحراوي هناك أغاني تخص يوم الختان وهناك ما هو مقترن بتنويم الصغير والتربيت على جسده وهناك ما هو خاص بالنجاحات والتفاؤل بمستقبل البنين والبناتن وهناك أغاني المولد النبوي الشريف ...

أما ما وجدناه في رواية **مملكة الزيوان** للصديق حاج أحمد فيتمثل في أغنية الأم لصغيرها كي يطمئن ويطرب لصوت أمه الشجي وينام من خلال قوله:

الله الله الله

ياسيدي بوتدارة

يا من جاهك عند الله

آرجال الصبارة

جيت مهودة لتوات

ألقيت الزعفة ما بقات أداها بوريشات

أولحت العار على مولانا "[34]؛ وهي قصيدة شعبية غنائية لا يعرف مرجعها ولا مصدرها، بل تحفظها كل البنات خصوصا المنجبات حديثا، فالطفل يناغي أمه وهي بدورها تحاوره وتلاعبه وتحرضه على الهدوء والنوم بواسطة صوتها الرخيم في سمع صغيرها فيكون بمثابة منبه له، لا يسمع من خلاله موسيقى فقط إنه يطرب لصوتها المليء دفئا وحنانا.

ج) اللباس التقليدي:

ويتكون من مجموعة الألبسة التراثية والشعبية التي حافظ عليها المجتمع الصحراوي، ولايزال يحافظ عليها منذ قرون، وهذا مايظهر الإنسان الصحراوي متشبثا بتقاليد اللباس وبالأخص في الأعياد والمناسبات، على أن المظهر التقليدي جزء لا يتجزأ من التراث وحضارة الإنسان في صحراء الجنوب والجنوب الكبير، إذ يعد اللباس التقليدي وسيلة من وسائل التعريف بأمة من الأمم؛ تنال بها التميز عن باقي الجماعات البشرية وتصبح متفردة باختيارها واختيار لونها وشكلها فتبرز ذوقها ووعيها وتعايشها الدائم، فالروائي الصديق حاج أحمد يبرز ويصف لكل جنس لباسه ولكل عمر ومناسبة زيه الخاص.

د) الأكلات الشعبية:

1/ **الكسكس**: لكل مجتمع طريقة طهو أكله وكيفية تحضيره مع وجود شبه في أنواع الأطباق وطنيا، وأن التغير في الاسم فقط، وكذلك الحلويات حسب المناسبة التي تقام فيها، حيث يشير الكاتب في كل مرة إلى الأكل، فكل مناسبة تلحقها أكلة شعبية خاصة بها؛ تقدم للضيوف عادة بكل حب وفرح، وإذا تحدثنا على الطعام تبرز لنا صفة دائمة في الإنسان الصحراوي وهي الكرم والسعادة في الأكل الجماعي والترحيب الصادق بالصديق والضيف، ونجد عدة عبارات ذكرها الكاتب في روايته منها: " **تحلق الحضور في شكل حلقات دائرية، عدد الحلقة الواحدة كما جرى العرف عندنا أن لا يتعدى العشرة من الرجال، وجيء بالقصعة الخشبية المغطاة بالمكب كانت تلك القصاع المملوءة بالكسكس الممرق، قد وضع عليها عطاري من اللحم المربوط بسعفة خضراء مطهوة معه**"[35]؛ ويوزع اللحم من اليمين إلى اليسار وهو ما يسمى بعادة **التسمار** وشرح **العطاري** يتمثل في مقدار من اللحم يزن قرابة الكيلوغرام الواحد حيث يمنح هذا المقدار من اللحم للضيف في كل وجبة وهو دليل على الكرم والسخاء.

ويعتبر الكسكس أو الكسكسي رمزا لكل المنطقة المغاربية، له شهرة عالمية فهو قديم قدم التاريخ، ويمثل هوية ثقافية لكل مناطق الجزائر تقوم النسوة الصحراويات بفتله وإعداده بواسطة السميد مع الماء، وهذا ما يعبر عن أصالة النسوة الصحراويات ومحافظتهن على العادات والتقاليد وفنون الطبخ ومايعكس احترامهن لأزواجهن وطاعتهن لهم.

2/الشاي: يعد الشاي أو التاي بنطق الشين تاء لدى المجتمع التواتي مشروبا دائما، تحضره النسوة كما يحب الرجال تحضيره في جلساتهم وسمرهم بعيدا عن الديار في الصحراء، أدواته إبريق وموقد الأفضل حطبا جزلا فمذاق الشاي حينما يطهى بالحطب أفضل مع توفيرأوراق الشاي ومادة السكر، حيث يستهلك الشاي ليل نهار، ويعرف الجميع أن للشاي نفعا عظيما لصحة الإنسان ويقيه العطش وعدة أمراض، وقد ذكر الروائي طقوس تحضير الشاي في قوله: **" كما كان إعداد أبي لطقوس الشاي لوحده، دون وجود أو إعداد من امبارك ..."**[36]

3/ المردود: وهي أكلة شعبية معروفة بكثرة في صحراء الجزائر، وقد نجده بتسميات أخرى فقط؛ تقوم النسوة بفتله مثل الكسكس إلا أن حباته أكثر حجما فقط يدعى أيضا بالبركوكس والبركوكش ومن طرق إعداده أنه يمزج مع مرق أحمر يعد خصيصا له حيث ذكر في الرواية من خلال قول الكاتب مبرزا أكلة شعبية معرفا بها أثناء في معرض حديثه عن والدته: " **تقوم بمعاونة جارتها أمبيريكة زوجة سيد الحاج لعوج في فتل الكسكس أو المردود**"[37]

4/ كما تحدث الروائي عن نوع من أنواع الخبز يدعى ب: **خبز أنور**؛ وهي أكلة شعبية تواتية شهية حسب قول الكاتب وتتميز بسهولة الطهي، تعتمد على دقيق القمح يعجن بالماء يتم طهوه في التنور؛ وهو قدر من طين وقد وصف الكاتب هذه الاكلة بقوله: **" أشهى الأطعمة عندي و أفضلها على الإطلاق في وجباتنا التواتية البسيطة، كخبز أنور، والخبز المبطن ... "**[38]

خاتمة:

نجد روايات الصديق حاج أحمد بمثابة لوحة فنية، يستعرض فيها الفضاء الصحراوي مراعيا في ذلك إقناع القارئ وإمتاعه، حيث يبسط لنا عادات وتقاليد توات بأدرار، وكذا أذواقهم ومعتقداتهم وسلوكات الإنسان الصحراوي، وتاريخ هذا الفضاء الساحر بمعالمه وقصوره.

إذ كانت روايات الصديق حاج أحمد مملكة الزيوان، وكاماراد ومنا ... رفيق الحيف والضياع؛ صورا فنية لعدة مدن، تنطلق من شمالي مالي والنيجر إلى الجنوب الجزائري الفسيح والزاخر بالأماكن المثيرة، والمشاهد الفريدة والصور السياحية المبهرة للجزائر عموما، ولجنوبها خصوصا بأسلوب يدفع القارئ والسامع لهذه الروايات الشيقة إلى أن يزور هذه المدن الصحراوية، ويمتع نظره بها ويتذوق أكلاتها الشعبية الشهية، ويشنف سمعه بأغاني شعبية تهز جوارحه، وتشفي أحزانه شفاء تاما، وقد يضبط ساعته وبوصلته اتجاه الصحراء الجزائرية في مناسباتها وتظاهراتها الشعبية والوطنية.

هوامش وإحالات المقال

[1]- إلياذة الجزائر، مفدي زكرياء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، ص36، 1987

[2]- صديق حاج أحمد، مملكة الزيوان، ص4.

[3]- القرآن الكريم، سورة مريم، الآية 25.

[4]- سناء شعلان، فضاءات التخييل مقاربات في التشكيل والرؤى والدلالة في الإبداع القصصي، د. ط، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، 2011، ص15.

[5]- الصديق حاج أحمد، رواية مملكة الزيوان، فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص19- 20

[6]- الصديق حاج أحمد، رواية مملكة الزيوان، فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص7.

[7]- كتاب اللهجة التواتية الجزائرية، أحمد أبالصافي جعفري، ص96، دار الكتاب العربي، 2013.

[8]- اللهجة التواتية الجزائرية، أحمد أبالصافي جعفري، ص120، دار الكتاب العربي، 2013.

[9]- مملكة الزيوان، الصديق حاج أحمد، فضاءات النشر والتوزيع، عمان، الأردن، د ط، ص12.

[10]- المرجع نفسه، ص12.

[11]- المرجع نفسه، ص20.

[12]- مملكة الزيوان، الصديق حاج أحمد، فضاءات النشر والتوزيع، عمان، الأردن، د ط، ص21.

[13]- المرجع نفسه، ص23.

[14]- المرجع نفسه، ص22.

[15]- الختان، محمد علي الباز، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، مكة، ط1، 1994، ص47.

[16]- الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية، محمد الجوهري، دار الكتاب للتوزيع، القاهرة، ط1، 1978، ص 389.

[17]- مملكة الزيوان، الصديق حاج أحمد، فضاءات النشر والتوزيع، عمان، الأردن، د ط، ص 52

[18]- المرجع نفسه، ص48.

[19]- المرجع نفسه، ص 49.

[20]- الصديق حاج أحمد، مملكة الزيوان، فضاءات النشر والتوزيع، عمان، الأردن، د ط، ص70.

[21]- أطلس العادات والتقاليد، عز الدين جعفري، ص183.

[22]- مملكة الزيوان، الصديق حاج أحمد، فضاءات النشر والتوزيع، عمان، الأردن، د ط، ص68.

[23]- مملكة الزيوان، الصديق حاج أحمد، ص96.

[24]- مملكة الزيوان، الصديق حاج أحمد، ص7.

[25]- كتاب اللهجة التواتية الجزائرية، أحمد أبالصافي جعفري، دار الكتاب العربي، 2013، ص77.

[26]- المرجع نفسه، ص84.

[27]معلومات عن زاوية كنتة من الأصل في 26 يونيو 2021 على موقع: geonames.org.

[28]- منطلقات التفكير في الأدب الشعبي، التلي بن الشيخ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص 155.

[29]- مملكة الزيوان، الصديق حاج أحمد، ص28.

[30]- المرجع نفسه، ص60.

[31]- المرجع نفسه، ص30.

[32]- مملكة الزيوان، الصديق حاج أحمد، ص24.

[33]المرجع نفسه، ص36.

[34]- مملكة الزيوان، الصديق حاج أحمد، ص24- 25.

[35]المرجع نفسه، ص29.

[36]- مملكة الزيوان، الصديق حاج أحمد، ص134.

[37]- المرجع نفسه، ص49.

[38]- المرجع نفسه، ص117.